

الضعيف

الأستاذ محمد سعيد العرياني

ود توفيق لويهجر المدينة وأهلها ويقطع صلته بالناس فترة من الزمان ، فإنه ليجد لذة ويحس أنسا أن يفارق هذه الصور التي يطالعها وتطالعه كل صباح ومساء ؛ لقد أطافت به نوبة من الضيق والمال حتى لا يلقى أهله إلا بوجه عابس وطلعة متجهمه ، ودق حسه حتى أصبح سريع التأثر قريب الانفعال ، وكان في إجازة طويلة ، والجو حار يهيج الأعصاب ويثير النفس ويبعث على السأم ، وإنه ليعيش بين أهله ولكنه يشعر بالوحشة والانفراد ؛ فلا طاقة له على البقاء في البيت ساعة من نهار ، ولا يجد في القهوة ما يسلي نفسه ويشغل فراغه ؛ وقد هجره أصدقاؤه جميعاً إلى المصايف أو إلى بلادهم ، وخلفوه ونفسه يمارع الهم والوهم والوحدة والالم ... !

وتصورت في خياله القرية التي مس ترابها جلده منذ ربع قرن ، والتي لا يندكر — لبعد العهد — متى هاجر أهله منها إلى المدينة ، ولمه ... ؟ لاشك أنه سيجد هناك من جدة العيش وطرافته ما يحمل عن صدره أثقال الهموم ويهدي إلى نفسه الموحشة بعض الأتس والهدوء والدعة .

وتراقصت أمام عينيه صورة جذابة من حياة القرية ويسر الحياة فيها بعيداً عن أسر التقاليد وتكاليف الحضر ، وحضرته ذكريات حلوة من زياراته القليلة لأخته في القرية ، فذكر مجالسه مع شبانها على حافة الباقية تحت شجرة التوت

الغايظة تساقط عليه ثمراً شهياً ، ورياضاته في جلاببه الفضفاض تحت المعطف الأبيض على شاطئ التربة وبين الحقول ، يتملى بجمال القرويات غاديات رائحات من التربة وإليها أسراباً أسراباً يجررن الذبول ، ويحملن الجرار على رؤوسهن ، ويهمسن بالغناء الساحر تسيل في نبراته الرقة والعذوبة والحنين . وذكر يجالس الأنس والسمر في الليلة المقمرة على مصطبة الدار ، وحديث القرويين يتنقل في لذة وسمر بعيداً عن التزويق والادعاء الفاخر وزهته مظاهر التبجيل والاحترام التي تحيط به هناك .

وفي اليوم التالي كان القطار يغذ السير بتوفيق إلى القرية ، وقد أشعل بين أصبعيه دخينة وسبح في أحلام لذيذة يهدوء القرية وسحر بناتها . . .
وتلقته أخته بالترحيب والعناق ، وجلست إليه قليلاً تحدثه ويحدثها ، ثم تركته لتهم له الطعام بيدها ، طعام القرية الشهى الدسم اللذيذ . وتوافد عليه عارفوه وشبان أسرته يحبونه ويتجاذبون وإياه أطراف الحديث ، يقطعون بين فقراته بالمكررة والسؤال عن الصحة والأحوال !
وخرج معهم في العصر يطوف بأزقة القرية يتعرف إلى الوجوه والأبنية ، واخترق سبلاً وعرة بين الحفر وكومات السمد ، وبيوتا متواضعة متقاربة كأنما تدانت للعناق . وانتهى به المطاف إلى دار له بها عهد ؛ لأن صاحبها من ذوى قرابته ، واجتمع لفيف من شبان القرية وشيوخها يبعثون التاريخ ، ويتناولون أبناء القرية وحوادثها ، وأبناء السياسة أيضاً ، وإن لهم في السياسة لأحاديث لا تخلو من حكمة وبعد نظر !

وأعجب توفيق بحديثهم كما تعجب بحديث الطفل ، فأنصت إليه في لذة وأنس ، كما يستمع السائح المؤرخ إلى خرافيات دليله الجاهل عن سر أرباب الهول وأطراف وادي الملوك !

وأدبرت فناجين القهوة ، وانهقدت في جو الغرفة بسحاب الدخان ، واشتد
الحرق فأسال العرق على الجباه ؛ وشعر توفيق أنه يكاد يحتنق ، وأن أعصابه
تخونه ، فهم بالانصراف ولكنهم ألحوا عليه أن يجلس مجلس .

وأخذوا في حديث الشياطين والجن ، فراح كل واحد منهم يحدث بما سمع
وما رأى وتفنت عبقرية الجهل في اختراع القصص المروعة والروايات الغريبة
وظففتوا يعددون الشياطين بأسمائها وحراذئها وضحاياها ... وأشار « الشيخ »
بيده فأنصتوا ومالوا برءوسهم إليه ، وقد أخذ يرقص شاربه وترتجف شفاته
في انفعال عصبي ، وشرع يقص على الحاضرين قصة العفريت الذي كان يتصور
عليه البيت وهو شاب ليالى متتابعة ، فيقاسمه طعامه وشرابه ، وفراشه أيضا ،
فلا ينصرف إلا مع أذان الفجر ، والزنجية الحسنة التي كانت تصحبه ليالى
فتحتل موضعه في الفراش ، وتضطره أن يقضى الليل معقودة يداه خلف ظهره
ورأسه بين ركبتيه إلى حائط الدار ، ثم لا يفارقه العفريت وصاحبه قبل الصباح
إلا بنفحة من دراهم أو عصوين من نار تلهبان ظهره ؛ جزاء رضاه أو سخطه
على ما يصنعان ...

وكان حديثا غريبا على الضيف ، فحاول أن يتفلسف وينكرو ويعلل ، ولكنهم
أنكروا منه ذلك ، وطلبوا إليه التسليم أو يتعرض لغضب الشياطين وأذاهم ؛
وكانت أعصابه مهيأة للتسليم فسكت . واستمروا يتحدثون .

وأحس رعدة خفيفة تمشى في جسده ، فسحب رجله في هدوء فدفنهما
في أطراف ثيابه ، وجمع يديه في حجره ، ومال إلى المحدث يستمع إليه هادئا
منصتا في شبه إيمان . لقد حطمت هذه الليلة الصاخبة أعصابه ، وهاجت وساوس
نفسه المريضة .

وانتهت السهرة ، ولكن صاحبنا ظل جامدا في مكانه ، لم يهم بالقيام حتى
دعوه ، فنهض كيلا يمتراخيا يكاد يسقط من إعياء . وشيعوه إلى دار أخته

وهو سار بينهم يتعثر في أوهامه ...

ووجد أهل البيت نياما فلم يبق ساهراً في انتظار عودته إلا مصباح ضئيل
مرقد في الردهة ، يرقص لهبه على عذيف الهراء . وكان يعلم أنهم أعدوا له
غرفة في الطبقة الثانية ، فصعد في السلم بطيئاً متثاقلاً يتلفت بين الخطأ ، والمصباح
في يمينه . ودفع باب الغرفة ببسراه فسمع صوتاً يشبه أنين المستصرخ ، فأدار
ظهره في فزع لدى من هناك ، ولكنه لم يجد شيئاً ، وعاد يدفع الباب ، فسمع
حشرة خشنه ، ثم ضحكة بشرية ناعمة ... !

ووقف في وسط الغرفة يقلب بصره بين زواياها في رعب وفزع ، وكانت
به رغبة في التدخين ، ولكنه لم يجرؤ أن يذهب إلى الغرفة الثانية — حيث
أودع حقيبته — ليستحضر بعض التبغ . وخلع نعليه وهو جالس على حافة
السريـر ويداه ترتعشان ، وتتجاوب في أذنه أصوات غريبة تفزعه وتسلبه
الطمأنينة . ودفن نفسه في الفراش ، واستلقى على ظهره وقلبه يدق دقات عنيفة ،
وكأن يداً غليظة تقبض على عنقه ، وأشباحاً خفية تطيف به .

وكان يعلم أنه ليس فوق السطح غير أكاداس من الخطب والوقود ،
ولكنه أحس دبيب أقدام ، وسمع أصواتاً غريبة هامسة ليست من صوت
البشر ! أترأه أغضب الشياطين فأرسلوا إليه عفريتاً ينتقم منه ؟

وضاقت أنفاسه ، واضطرب فكره ، واشتد ضغط الوهم على صدره ، وهم
أن يصرخ ويستنصر ، ولكن صوته احتبس ولم يتحرك لسانه . وشبه له
أنه يرى شبحاً من الضباب في شكل غير إنساني — وإن كان يمشي على رجلين —
ينسل من النافذة مع ضوء القمر ، ويشير إليه بالصمت في إنذار وتهديد ... !
وسحب الغطاء يخفي عينيه في حركة آلية ، لكنه أحس شيئاً بارداً يلمس
أطراف قدميه ، فاستوى جالسا وأفلتت منه صرخة مخنوقة ، وتوارت الأشباح
فلم يبصر شيئاً ، ولكن مهمة غير مفهومة ، وديبها وهمسا ، وأصواتاً غريبة ،

تصك أذنه من بعيد . واستلقى ثانية على الفراش وهو يحرق في الحائط الذي أمامه تحديق الخائف المذعور ، فقد أبصر ظلاً أسود مطبوعاً عليه ، يحرك رأسه ويشير بيديه كأنه يتحدث إلى شخص بعيد . وود توفيق أن ينظر إلى ما وراء ليرى المشار إليه ، ولكنه خاف ؛ واستمر الهمس والديب يرنان في أذنيه ، وتتراقص الرؤى والأشباح أمام عينيه ، فلم يمْ لياته ؛ وفي الصباح ، مع أول خيط من ضوء النهار ، كان جالسا في فراشه يصفق بيديه في عنف يستدعي الخادم . ودخلت أخته تحيه ، فراعها مارأت في وجنتيه من صفرة الخوف وإعياء السهر ، وقالت له « توفيق ، ماذا بك ؟ » .

— « لاشيء ، ولكني مسافر اليوم فأعدى لي ركوبة إلى المحطة » .

— « مسافر ؟ ولكنك عرفتني أمس أنك قد تمكث لدينا شهرا ، فلماذا غيرت رأيك ؟ » .

— « لاشيء ، لاشيء ، قلت لك لاشيء . إن حقيقتي في الغرفة الثانية » .

وآلمتها لهجته فطفت شفتيها آسفة وخرجت تنفذ ما أمر به ، ثم عادت تسأله « حدثني يا توفيق ، هل تأملت من شيء هنا ؟ »

— « لا ، ولكني لم أخبر أمي أمس أنني مسافر ، فأخشى أن يقلقها غيابي أو يؤلمها ، لذلك سأعود » .

— « ليتك لم تحضر يا توفيق » . وانصرفت لبعض شأنها .

وحين تناول توفيق حقيبتة من حيث وضعها أمس ، أفلتت منها ورقة فظنها سقطت منه ودسها في جيبه قبل أن يقرأها .

ولما جلس في القطار ، وضع يده في جيبه ليخرج شيئا ، نعث بالورقة ونثرها بين أصابعه يقرأها وضحك توفيق وشاع في وجهه السرور حين عرف ما هناك ، لقد كانت أخته تربي له ماعزة ولوداً ، فكتبت له هذه الورقة أمس تخبره أن في ضيافة ماعزته فوق السطح جديا فلا يفزع ديبهما ، ريثما ترد الجددي إلى صاحبه في الصباح . . .

لقد خاف توفيق وفزع ليلته ، لأنه كان يظن أنه وحده ضيف البيت . . .

محمد سعيد العربي